الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرباس بعابدين — القاهرة — تليفون دائرة ٤٦٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٢١ الثلاثاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢ — ٢٣ من مارس سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العدد

الإصلاح الاجتماعي في مصر

«على ضوء تقرير بيفردج»

أحلت الثقافة في عددها السابق أهم المقترحات التي وردت في تقرير سير وليام بيفردج عن التأمين الاجتماعي في بريطانيا العظمى. وقد يخيل للبعض أن التقرير لا يعدو أن يكون بحثاً تاماً في علاج ناحية من النواحي الاجتماعية مستمداً من طبيعة البيئة الإنجليزية وظروفها، وأنه لهذا لم يكن ليستحق هذا الاهتمام الكبير الذي قوبل به في مصر وغيرها من البلاد. ولكن الأمر أخطر مما يبدو للنظرة الأولى، فالمشكلة التي عالجها التقرير ليست مشكلة الإنجليز وحدهم، بل هي مشكلة الإنسانية جمعاء، وليس بعجيب أن يتلهف الناس لمعرفة ما وصلوا إليه في حلها، لعل ذلك يكون هادياً لهم في علاجها لديهم، والآراء الصالحة كالمخترعات النافعة لا تبقى ملكاً لمن فكر فيها أو اخترعها بل تسرى بين الناس جميعاً ويعم انتفاعهم بها. وكل حق جديد يكسبه الفرد في أمة من الأمم يصير حقاً مقرراً للأفراد في كل الأمم يسعون لتحقيقه ويعدون الوسيلة لكسبه.

ومشروع بيفردج لا شك يقرر للفرد حقاً جديداً ويدعم مبدأ اجتماعياً جديداً. لقد كانت رعاية الفقراء والضعفاء والعجزة والعناية بالشيوخ والأطفال والأيامى عملا إنسانيا ندبت إليه الأديان ودعا له المصلحون، ولكنه ترك للجهود التطوعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات مدفوعين بوازع من دينهم أو بعواطف إنسانية رحيمة. ولكن هذه الجهود التطوعية كانت محدودة الأثر ضيقة المدى، وبتطور المجتمعات وتقدم المدنية رأى كثير من الحكومات من واجبها أن يعين هذه الجماعات بعض المعونة

لتوسيع دائرة جهودها ، ولكن ذلك كله لم يكن كافيا لحل المشكلة ، وخطا بعض الدول في أحداث القرن الأخير خطوات واسعة في سبيل تعميم المساعدة لكثير من طوائف الشعب المحتاجة ، ففي إنجلترا التي كانت أول من وضع قانونا للفقراء في عهد الملكة إليزابث وضع قانون التعويض العمالي سنة ١٨٩٧ وكان هذا القانون في أول أمره يطبق على عدد محدود من الحرف ثم جعل عاما يطبق على الحرف جميعاً في سنة ١٩٠٦ ، وبدأ التأمين الصحي الإجباري من سنة ١٩١٢ ، وبدأ التأمين ضد التعطل سنة ١٩١٢ في صناعات قليلة ، ثم صار عاما في كل الصناعات سنة ١٩٢٠ . وبدأ قانون المعاشات لكل من بلغ السبعين في حدود ما يدل عليه البحث من مقدار دخل الفرد سنة ١٩٠٨ وفي سنة ١٩٢٥ صدر قانون جديد للمعاشات للشيوخ والأرامل واليتامى . وفي سنة ١٩٣٤ عدل قانون التأمين العمالي ضد التعطل ووضع على أسس جديدة ، وبعد ذلك بعشر كانت توضع من آن لآن أنظمة لبعض حالات البحث الخاصة كالعمى وإلى تنظيم أمر العناية بالصحة في المستشفيات وخارجها والعناية بمصالح الأطفال في المدارس وقبل الالتحاق بها .

ولكن تقرير بيفردج يصل بهذه التنظيمات الاجتماعية التي كانت متفرقة في أزمان مختلفة وعلى أسس متفاوتة إلى تطورها الطبيعي ، ويقرر بجلاء أن من حق الفرد على وطنه أن يؤمنه من شر الفاقة وأن يكفل له من الرزق ما يقيم أوده في طفولته وهرمه وفي صحته ومرضه وفي عمله وتعطله ويلقي على الحكومة واجباً جديداً تلتزم به لأفراد الأمة عامة ، هو واجب تحريرهم من العوز وتنظيم هذه الحماية وتدبير وسائلها .

لم يعد الأمر مجرد صدقة يتقرب بها المحسنون إلى الله في تخفيف آلام المحتاجين ، ولم يعد الأمر مواساة للضعفاء يتفضل بها ذوو القلوب الرحيمة والعواطف الإنسانية ، ولكنه أصبح حقاً مقرراً للفرد على أمته يفرضه عليها انتماؤه لجماعتها والتزامه بواجبات المواطن . وهذا هو الحق الجديد الذي أشرنا إليه في بدء حديثنا والذي أصبح إضافة جديدة لحقوق الإنسان التي قررتها الثورة الفرنسية .

على أن التقرير كما يقرر كاتبه لم يعالج إلا ناحية واحدة من المشاكل الاجتماعية ، ولعلها أضعف النواحي خطراً وأيسرها حلاً وهي ناحية « التحرر من العوز » ، ولكن هناك آفات أربعاً أخرى تخترم المجتمع وتفسد حياته وتضعف إنتاجه ، وهذه الآفات الأربع هي : الجهل ، والمرض ، والبؤس ، والكسل . وهي جديرة ببحث خاص وربما أدق الخطط لتحرير الشعب من ويلاتها .

ولا أريد أن أعيد ما ذكره صديقي الدكتور عوض في عرض النواحي التي يعالجها هذا المشروع ، ولكني لا أملك أن أخفي الدهشة التي شعرت بها عندما رأيتا أتصفح هذا التقرير وأتعجب أن أشعر بهذه الثقافة التي في تدبيرها .

لماذا اختار التقرير أن يجعل المشروع مشروع « تأمين » ولم يجعله مشروع إعانة تقدمها الحكومة للأفراد في حالات العوز ، مع أن ما يساهم به الفرد في هذا التأمين جزء محدود والعبء الأكبر واقع على الحكومة وعلى أرباب الأعمال ؟

لأن هذه كما يقول كاتب التقرير هي رغبة الشعب في بريطانيا ، وهذه الرغبة تتجلى بشيوع فكرة التأمين لدى أكثر أفراد الشعب سواء أكان التأمين إجباريا أو اختياريا ولأن روح الشعب تنفر من كل معونة تحمل في طياتها معنى الصدقة والإحسان فهو يريد أن يأخذ مقابل ما يعطي .

وهل أنا بحاجة لبيان دلالة ذلك ، والمعنى الكريم الذي ينطوي تحته ؟

لم يشترك كل فرد في دفع قسط التأمين مع أنه قد

لا ينتفع به شخصيا إذا عافاه الله فى بدنه ولم تقطع عنه وسيلة رزقه ؟

لأنها ضريبة وطنية عامة سينتفع بها غيره ممن لم يؤت حظه . ولأنه لم يأخذ على الزمن ميثاقاً ألا تناله تصاريفه ولأنها رمز التضامن الاجتماعى القوى الذى يفيض فيه القادر على أخيه العاجز ويمن الميسور على من به عسر . ولأن المجتمع كالجسم إذا مرض منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . حتى أن القسط الذى يدفعه الفرد حين لا يؤثر فى مستوى عيشه .

ثم تعال معى أطلعك على سر جديد من أسرار تقدم القوم يتجلى فى هذا التقرير .

لقد أقام الرجل بحثه ومن حوله أداة كاملة التنظيم تقدم له المواد التى يحتاجها هذا البحث . لم يبن الرجل آراءه على تقديرات ظنية غلب عليها التصور ، ولكنه يستند إلى إحصاءات دقيقة تمتد إلى أخص دقائق الحياة .

لم يجد الباحث صعوبة فى معرفة تكاليف الحياة الضرورية للفرد فى الريف والمدن ، فى مأكله وملبسه ومسكنه وما إليها ، (وهو يعرف ما كانت عليه سنة ١٩٣٨ وما زادت إليه سنة ١٩٤٣) وقد يدهش القارئ أن يعلم أنها لم تزد فى انجلترا إلا ٣٠ ٪ ولديه بيانات دقيقة عن عدد أفراد كل أسرة وعن النسب فى مختلف الأسنان . وعن النسب المئوية لأسباب التعطل وعن كثير من النواحى التى تشتغل هيئات الإحصاء فى حصرها وجمع أدق البيانات عنها .

ولست بحاجة لأن أعقب على هذه الناحية الهامة من النواحى التى يحس كل باحث اجتماعى فى مصر بضرورة النهوض بها إذا أريد بناء الإصلاح الاجتماعى عندنا على أسس سليمة .

والآن وقد قدمت للقارئ هذه الخواطر التى قامت برأسى وأنا أتصفح هذا التقرير أنتقل به إلى ما أردته من مقال وهو ما يفيده الإصلاح الاجتماعى فى مصر منه .

لعل القارئ يحس معى بُعد ما بيننا وبين القوم فى ناحية التطور الاجتماعى ، ولقد يشعر أن أمامنا مراحل انتقال طويلة قبل أن نصل إلى المرتبة الرفيعة التى بلغها تنظيمهم الاجتماعى . ولكن ميزة من يجىء متأخراً أن تكون أمامه تجارب سواه وثمرات خبرتهم ، وهو لهذا خليق أن ينتفع بها وأن يكون أسرع خطى فى اجتياز مدارج التطور .

لقد يبعث التشاؤم لدى طالب الإصلاح الاجتماعى فى مصر أن يجد مشكلة الفقر فيها أشد تعقداً منها فى انجلترا مثلا .

فهناك مجتمع زاخر بالصناعات يشتغل فيها أكثر أبناء البلاد ، وهناك تعمل النساء إلى جانب الرجال ، وهناك موارد غنية تسمح بتنفيذ برامج الإصلاح ، وهناك عناية صحية من جانب الأفراد والحكومة ، وهناك مستوى ثقافى يحول دون مقاومة التقدم ويعين على تيسير الإصلاح ، وهناك روح عام يساعد على أداء الواجب والتمسك بالحقوق .

وهنا مجتمع فقير نصفه عاطل لا يعمل ، وهو كَلٌّ على سواه وهن النساء ، والنصف الآخر تفترسه الأمراض المتوطنة ويزيده الجهل سوءاً بما يبعده عن تقبل الوسائل الحديثة فى رعاية صحته وفى تحسين إنتاجه . والموارد محدودة تكاد تقتصر على الزراعة ، ولا تكاد تكفى لشغل بعض القادرين على العمل . وفى أخلاقنا العامة ضعف يقعد بالقادرين عن مد يد المساعدة للعاجزين ويزين للمحرومين الكسل واشتهاء الكفاف بأدنى الوسائل من تطفل وتحايل وتلصص وتدليس ، وقد تحمل هذه الموازنة بعض المفكرين فى إصلاح حال هذا الشعب على نفض أيديهم من الأمر وترك الأمور للمقادير .

(البقية على الصفحة التالية)

منهج نقد الفن :

٣ – الذوق عند الجرجانى

يقول الجرجانى « وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها . ثم اعلم أن ليست المزية واجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض » « وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواضعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الكاتب والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم . » .

وهذا ينتهى بنا إلى ما نراه اليوم وما ندعو إليه جاهدين من أن النقد وضع مستمر لمشاكل ، وأن لكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف رآها وتفهمها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الوضعى الذى نؤمن بفائدته وهو بعد ليس بالأمر الهين ، لأنه لابد لنا كما يقول روسو من فلسفة كثيرة لملاحظة ما نراه ، ثم إن الملاحظة لا تكفى بل لابد من وضع الأشكال ووضعه فيما يحكى الشكل الأوروبى حق له ومن ثم حكم فيه .

ولكن سوء الحال أدعى لبذل أقصى الجهود ولا مكان لليأس فى مثل هذا الكفاح الشريف الذى سيعيد للوطن قوى مبددة وجهوداً مضيعة ويعيد للحياة لدى كثير من أفراده قيمة جديدة .

لنؤمن أولا أن القوة البشرية أثمن موارد الدولة وأن كل جهد يبذل فى تحسينها يستحق ما يبذل فى سبيله من عناء .

ولنؤمن بأن كرامة الوطن وعزته تقتضى ألا يبقى منه فريق يتضورون جوعاً فى أسمالهم البالية حتى يستنفدوا حياتهم البائسة ببطء دون أن يتمتعوا بوجودهم أو ينتفع بهم الوطن .

ولنؤمن بأن من حق كل فرد ينتمى لهذه البلاد أن يطمئن على رزقه وأن يتحرر من ربقة العوز ويأمن من الخوف على مستقبله ومستقبل بنيه .

فهذه الأمور بديهية ضرورية أولى يتعين أن يشرب بها كل قلب ، ومتى تمت قوة الإيمان بأمر سهل تحقيقه مهما بدا فى سبيل ذلك من صعاب وعقبات .

إننا بحاجة لأن نحصر مواطن الضعف وأسبابها ، وأن نقدر ما يقتضيه الحال من تدابير للقضاء عليها ، وما يكلفنا ذلك من جهد ومال لتنفيذه ، ثم ننظر بعد ذلك فيما بين أيدينا من موارد ووسائل وما نستطيع أن نعمله لزيادة هذه الموارد وتحسين هذه الوسائل . ثم نوازن بين ما هو مطلوب منا وما نستطيعه ونرتب خطتنا التدريجية فى الإصلاح على هذا الأساس .

على أنى أحس أن كل هذا إجمال وتعميم ونحن بحاجة إلى توضيح وتخصيص . ولعلى أوفق لشىء من هذا فى عدد تال .

محمد عبد الواحد محفوظ

لابد إذن من الحكم على النظم الذى أمامنا من حيث إنه يجمع بين معان متباينة ، ونحن بمثلنا هذا لا نقف عند الألفاظ بل ولا عند الجمل ، وإنما ننظر فى المعنى عند تمامه والفراغ من تأليف عناصره . ننظر فى المعنى منظوماً ومن البين أن الذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق ، وإلى هذا فطن الجرجانى بحسه الأدبى الصادق فكتب تلك الصفحة الرائعة التى نوردها كاملة لأهميتها البالغة : قال « اعلم أنك لن ترى عجباً أعجب من الذى عليه الناس فى أمر النظم ، وذلك لأنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن هيهنا نظماً أحسن من نظم ، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك تسدر أعينهم وتضل عنهم أفهامهم وسبب ذلك أنهم أول شىء عدموا العلم به نفسه من حيث حسبوه شيئاً غير توخى معانى النحو وجعلوه يكون فى الألفاظ دون المعانى ، فأنت تلقى الجهد حتى تميلهم عن رأيهم لأنك تعالج مرضاً مزمناً وداء متمكناً ، ثم إذا أنت قدتهم بالخزائم إلى الاعتراف بأن لا معنى له غير توخى معانى النحو ، عرض لهم من بعد خاطر يدهشهم حتى يكادوا يعودون إلى رأس أمرهم ، وذلك أنهم يروننا ندعى المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معانى النحو شىء يتصور أن يتفاضل الناس فى العلم به ، ويروننا لا نستطيع أن نضع اليد من معانى النحو ووجوهه على شىء نزعم أن من شأن هذا أن يوجب المزية لكل كلام يكون فيه بل يروننا ندعى المزية لكل ما ندعيه له من معانى النحو ووجوهه وفروقه فى موضع دون موضع وفى كلام دون كلام . . . . . والداء فى هذا ليس بالهين ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً والسعى منجحاً ، لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيئاً لإدراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لها فى نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شىء منها وشىء ، ومن إذا أنشدته قول أبى نواس :

ركب تساقوا على الأكوار بينهم
كأس الكرى فانتشى المسقى والساقى

كأن أعناقهم والنوم واضعها على المناكب لم تعمد بأعناق

أمن لها وأخذته الأريحية عندها . . . . وأنت تقول فى مخاطبتك على استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها ، وبهذا يعود عبد القاهر إلى النقاد الكبار أمثال ابن سلام والآمدى وعبد العزيز الجرجانى الذين يرون فى الذوق وفى « استشهاد القرائح وسبر النفوس » المرجع النهائى فى كل نقد أدبى صحيح .

ولكن قد يعترض قارئ بقط من أن يدخل الذوق والذوق لا يكون إلا حيث تسلم للكاتب حرية فى اختيار طرق العبارة عما يريد ، وعبد القاهر نفسه لا يرى هناك اختياراً ما ، وعنده أن المعنى لابد متحكم فى اللفظ ، والجواب على هذا الاعتراض خليق بأن يزيد النظرية وضوحاً وصاحبها ينكر أن تكون المزية فى اللفظ ، وإذن فهو لا يحكم الذوق فى الموازنة بين ألفاظ ممكنة ، وإنما المزية فى المعنى ، وفى المعنى تكون المفاضلة ، وفى المعنى يكون الاختيار ، والأمر ليس نظماً لألفاظ بل نظماً لمعان ، فنحن نحكم الذوق فى اجتماع بعض المعانى إلى بعض ، وعبد القاهر ليخضع اللفظ أيضاً للذوق فإنك مبرأته من النبس مضمنة المعنى للفظ ، أى المعنى المعبر عنه ، وفى هذا إفراط فى الدقة يكاد يمس المغالطة ، ولكننا فى الحق نستطيع أن نقبل منه هذا الاحتيال إذا نظرنا المسألة نظرة تاريخية ، فذكرنا طغيان اللفظية فى ذلك الحين ومحاربة عبد القاهر لها بكل قواه ، وكلنا لا ريب يذكر ذلك التكلف

التقبل الذي ظهر عند أنصار البديع في الشعر ثم امتد إلى النثر فألف أسلوب الصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري وجانبا كبيرا من أسلوب ابن العميد نفسه .

يحكم الذوق إذن عند الجرجاني في نظم المعاني التي يعبر عنها ، خذ لذلك مثلا تطبيقه على أبيات إبراهيم ابن العباس :

فلو إذ نبا دهر وأُنكر صاحبٌ
وسُلّط أعداء وغاب نصـــير
تكون عن الأهواز داري بنجوة
ولكن مقادير جرت وأمـــور
وإني لأرجو بعـــد هذا محمدا
لأفضل ما يرجى أخ ووزير

« فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة ، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو — إذ نبا — على عامله الذي هو — تكون — وأن لم يقل : فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر ، ثم أن قال ، تكون ، ولم يقل ، كان ، ثم أن نكر الدهر ولم يقل — فلو إذ نبا الدهر — ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى من بعد . ثم أن قال — وأنكر صاحب — ولم يقل — وأنكرت صاحبا — لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عددته لك تجعله حسنا في النظم وكله من معاني النحو كما ترى » .

والإمعان في ملاحظات عبد القاهر نجدها ترجع إلى مفارقات في المعاني وألوان النفس هي التي حددت اختيار الشاعر وضمنت له الجودة . جودة العبارة عما في نفسه بدقة ثم تبصرنا بالألوان النفسية لتلك المعاني ، فهو قد قدم الظرف على عامله قدم « إذ نبا » على « تكون » ، وذلك لأنه لم يتمنى أن تكون داره بنجوة عن الأهواز إلا عندما نبا الدهر ، وفي هذا النبو ما يحز في نفس الشاعر . وكأنه قد سارع إلى نفسه ثم هو قد اختار المضارع [1] « تكون » على الماضي كان ، لأن المضارع هنا نحس في دلالته معنى الحالة المستمرة المنسحبة من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل ، والشاعر يود منذ نبا الدهر أن لو تكون داره عن الأهواز بنجوة . تكون حتى يحين نبو الدهر — تكون وتستمر كذلك لأن الدهر قد أثبت بنبوه تلك المرة أنه قادر على الغدر في كل حين ، ومن الخير أن نقدر ذلك الغدر في كل حين . وإذن فالمفاضلة بين الماضي والمضارع ليست مفاضلة بين ألفاظ بل بين معان ، وعلى الأصح بين حالات نفسية بأكملها . ثم إن شاعرنا قد نكر « دهر » وهو بهذا يفرد الدهر فيجعله دهراً خاصاً به دهراً غداراً لا الدهر دهر الناس كافة . نبا دهر ابتلاه به القضاء المحتوم . وإذا كان تنكير الدهر يعطي الشيء الواحد المعرف وحده يفيد الإفراد فإن تنكير صاحب وأعداء ونصير يفيد الإطلاق ويشمل أصدقاء الشاعر ، فهو ينكر كل صاحب لأن قد تخلى عنه أولئك الأصحاب ، وهو يرى أن كل عدو قد تسلط وأن كل نصير قد غاب . تنكير التعدد أفاد الإطلاق والأمر في تنكير « مقادير وأمور » يشبه تنكير « الدهر » فهو يخصصهما بالشاعر ويجعلهما وقفاً عليه ، وإذن فنحن أمام معان مختلفة وألوان نفسية متباينة تدرك بعضها بعقولنا ونحس أغلبها بقلوبنا ، وهذا الإحساس هو أساس الذوق عند ناقدنا العظيم .

وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تحليل الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة فيكتب فصلا « في النظم يتحد

(1) يسمى هذا المضارع في نحو اللغات الأوربية ، بالمضارع التاريخي Présent historique وقد عرف باستعماله فرجيل شاعر اللاتين في ملحمته الشهيرة « الإنيادة » ولهذا المضارع دلالات كثيرة منها في رواية حدث مطلقا من الزمن ومنها استحضار الماضي حتى لكأننا نراه ونحن في المضارع عند فرجيل ومنها إفادة الاستمرار والانسجام كما في مثالنا وفي الحق أن استعماله أكثر وأدق من أن تحصر أو تحدد فالمراد والكتاب إنما يستعملونه بقدر إحساس في نفوسهم أكثر من العبارة عن معنى بذاته .

في الوضع ويدق في الصنع » قال : « واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البحتري :

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى
أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر

ونوع آخر قول كثير :

وإني وتهيامي بعزة بعد ما
تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل اضمحلت

و . . . . الخ »

ومن البين أن عبد القاهر في هذه الملاحظات قد أحس بوجود الجمل المركبة التي تشمل عدة معان بعضها قيود لبعض أو متممات . وياليت اللاحقين له ساروا في هذا السبيل ، ولو أنهم فعلوا لاستقام فهمنا لممكنات لغتنا ولعرفنا مثلاً الطرق التي لدينا للتعبير عن الأزمنة المطلقة والأزمنة النسبية في الجملة الأصلية وفي الجمل التبعية التي تقابلها في اللغات الأوربية والتي نحتال فنعبر عنها في لغتنا بكلفة الحيل غير واعين لما نفعل .

ومع ذلك فعبد القاهر لم ينظر إلى هذه المركبات إلا من حيث الجودة ، فهو يرى في اجتماع تلك المعاني بعضها إلى بعض إعجازاً من الشعراء ، وهو لا يعنى بدراسة نحوها فيرعاها بنقدها نقداً أدبياً ، ومرد ذلك النقد وفيصله هو الذوق . الذوق الذي يحس ثم تأتي المعرفة فتحلل ما يمكن تحليله ، ولقد يصيب التحليل وقد يخطئ ، رغم استقامة الذوق .

والآن نستطيع أن نفهم كيف أن عبد القاهر كما قلنا في أول مقال عنه قد ابتدأ بنظرية فلسفية في اللغة ثم انتهى إلى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا الأخير في دراسة الأدب ، ويجب أن يظل ذلك المرجع ، وإذا نحن استقرأنا كل ما كتبه عن الإسناد وعن التقديم والتأخير وعن الفصل والوصل وتمعنا في أمثلته فنجد إحساسه الأدبي سابقاً دائماً لعقله ومعرفته بحيث يخيل إلينا أن هذا الرجل إنما صدر في آرائه عن تجربة طويلة بنصوص الأدب العربي وقد وهبه الله حساسية أدبية في تلك النصوص ، ثم أطال التفكير في أسبابها فانتهى به ذلك إلى كل تلك الحقائق التي وإن يكن في [illegible] ما عاشتها كما في علم اللسان الحديث طرقه ووجوهها فالفضل الأكبر في الوقوع عليها لإحساس عبد القاهر الفطري ، ونظريته كما قلت ليس لها من القيمة ما لتطبيقاته ، فهنالك يظهر ذوقه العربي السليم ذلك الذوق الذي لا يمكن أن يغني عنه في الأدب شيء ، وما نظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ورد المعاني إلى النظم وما منهجه في نقد النصوص نقداً موضعياً إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ويحس « بما تحيط به المعرفة(1) ولا تؤديه الصفة » .

(انتهى) محمد مندور

(1) هذه الجملة فيها إيضاح للوصل وهي من المسألة الخليقة أن يحتفى بها الأعلام . ونص المعرفة هنا « المعرفة الباطنية » التي عبر عنها الأستاذ أحمد بك أمين في كتاب الأخلاق « بالقلالة » ترجمة للفظة الأوربية Intuition وعلى تلك اللفظة يبني النقد إلى يحكي بشكلها ولا وقف عنده عند الشكل .

لستِ أنتِ

لستِ أنتِ المثلَ الأعلى لوحيي لستِ أنتِ
هو روح من سماء الخلد لم تعلق بنتِ
تنقل النفس إلى الفردوس من وقت لوقت
وتسق الروح من وحي وأشجان وصمت
وتشيع الحب والتحنان في رفق وخفت
كلما وجهت قلبي للتي لاحت بسمتي
لا تظنيها خيالاً بعمايه انفردت
إنها أسمى وأنقى فطرة مما ظننت
إنها وحيي والمثلى وتعريشي وصمتي
إنها موضع نجواي إلى الله وحبي
لستِ أنتِ، لستِ أنتِ

***

كتبتها فيما مضى ثم تجلت واضمحلت
كتبتها يومَ على الإخلاص والطهر فطرت
ثم أضحت حولها نسمات وهفت
لحقت بالملأ الأعلى وبالأرض التصقت
إنها تجزيك في كل مراد فيه جئت
إنها صانت عهودي وودت لي حين خنت
حفظت ودي ولكن أنت للود أضعت
طهري قلبك تسكن في سماه إن أردت
أو دعيها ودعيني حسبنا ما قد صنعت
هي لن تهبط يوماً للثرى مهما بذلت
لستِ أنتِ، لستِ أنتِ

***

يا خيالي أين عهد الثغر إذ قلتَ — وقلت ...
يوم شدتُ الأملَ الثائرَ في قلبي وشدت
كلما أترعت كأساً من أمانيَّ نهلت
وإذا ودعت لحناً من أغاريدي طربت
وإذا أصغيت للنجوى وللحب صدحت
تلك الدار فما حلتُ عن الود وحلت
ما نقضتُ العهد لكن أنت للعهد نقضت
جئتُ فيك الغاية المثلى لحبي يوم كنت ...
ثم زال الوهم فاستولت على قلبي وبت
حيرتي فيه وأحببته ولكن أنت مُت
لستِ أنتِ، لستِ أنتِ

علي عبد العظيم

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن ستة أشهر

٤٥	في مصر والسودان
٣٧/٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

معانى الألفاظ وقيمها

عرض الأستاذ العلامة أحمد أمين بك على قراء الثقافة [1] الغراء خطرات ذات شأن في اللغة ، جاء في فقرة منها قوله « إن دلالة الألفاظ على المعاني تختلف جدّ الاختلاف بين الأشخاص بحسب مدنيتهم وثقافتهم وعقليتهم ... ... »

وقد ذكرتني هذه الخطرة فصلاً للأستاذ (Meillet) بيّن فيه « كيف تتبدل معاني الكلمات (Comment les mots changent de sens) » .

كنت قرأته في كتاب « إسرتيه » (Essertier) الأستاذ في جامعة بواتييه عن « فلاسفة القرن العشرين وعلمائه Philosophes et Savants du XXe Siècle » .

والحقيقة أن لكل كلمة معاني تختلف وتتباين ، وأن لها عند كل طبقة من طبقات الناس معنى وقيمة .

ومن الواضح أنه كلما اتسعت مدنية أمة ، زادت ألفاظها وأعمالها ومشاغلها .

وكلما رقت حضارتها ازداد أهلوها افتناناً بناحيات من الحياة كانوا غفلوا عنها .

ثم كان لكل طبقة نظر في تلك الناحية خاص بها . ذلك لأن العقول والأفهام تختلف وتتباين ؛ فتفكير الزارع ليس كتفكير الجندي ، وتفكير السياسي يباين تفكير المدني ، وتفكير المدرّس يخالف تفكير الصانع .

ولأن لكل طبقة حاجات وأعمالاً خاصة بها .

ومن هنا كان اختلاف دلالة الألفاظ عند الناس ، مع أنهم ورثوا جميعاً لغة واحدة ، وكانت مختلفات .

فكلمة « عملية » Operation مثلاً ، تدل عند الأطباء الجراحين على الصبر والجَلَد ، وتمزيق المشرط الحادّ اللحم والجلد ، وسيلان الدم وضربان الألم .

وهي عند مدرّس الحساب ، أعداد تجمع ، وأعداد تضاعف وتقسم ...

وهي عند المصرفيّ ، رؤوس أموال توضع ، وسهم يؤخذ وربا يضاف ويُرفع .

فلكل مهنة ، ولكل علم ، ولكل فن ، يعطي اللفظ الواحد المشترك معنى يوافق حاجته ويلائمها .

وهذه الألفاظ تنتشر وتدرج على الألسنة إذا وافقت تلك الطبقة أو ذاك العلم .

ويقول الجاحظ في الحيوان « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة » .

فإذا كانت طبقات مختلفات ، أو صناعات متباينات تملك كلمة واحدة وكانت لها معنى واسع ، فإن معناها يتسع أو يضيق حسب اتساع الصناعة أو ضيقها ، وانتشار الطبقة أو قصورها .

ويرى الأستاذ « مييه Meillet » أن هذا التبدل في المعنى راجع لوفرة حاجات تلك الطبقة أيضاً أو قلّتها ، ومن ثمّ يضيق معنى الكلمة أو يتسع .

فالفقه لغة العلم بالشيء مطلقاً ، ثم خُصّص عند الفقهاء بعلم معروف ، فضاق معناها :

والصلاة الدعاء مطلقاً ، فأصبحت رسوماً وحركات .

فاللفظ ، يتسع معناه إذا خرج من دائرة ضيقة إلى دائرة أكثر سعة ؛ وهو يضيق وينحصر إذا انتقل من دائرة عريضة إلى دائرة أقل سعة .

ولذا كان معنى « العملية » عند الجراح أوسع من معناها عند مدرّس الحساب ، وعند قائد الجيش أوسع منه عند الجراح .

(١) في العدد ذي الرقم (٢٩٦) .

وثمّ أمر آخر .

ذلك أن اختلاف معاني الكلمات ليس منوطاً باختلاف اللهجة . لأن لكل جماعة ، مهما كان شأنها ، تفكيراً خاصاً كما ذكرت ، وتخضع لرسوم خاصة في الدائرة التي تعيش فيها ، وإنما أثر في هذا التبدل اختلاف العقلية ، والثقافة ، والوسط الاجتماعي ، والسن :

فالنساء ، والرجال ، والشبان والشيوخ ، والفقراء والأغنياء ، والصغار والكبار ، لكل منهم فهم خاص خاضع لما ذكرنا .

ومن هنا كان لكل كلمة قيمة ، تختلف بين فئة وفئة .

عند النساء مثلاً ، فإن لهن كلمات خاصات ليس لها الشأن نفسه عند الرجال .

فلفظ « لبس » أو « زيّ » له عند النساء قيمة وشأن ، ذلك لأنه يدل على ميل يحرصن إليه الصبايا كلهن . ولهن إليه ميل شديد وحرص .

لأن اللباس زينة المرأة .

والزينة سبيل الإرضاء .

وليس للمرأة عمل سوى الإرضاء ، كما يقول « فينيلون » :

وإن المرأة لتجد أندى على قلبها وأحلى ، أن تشتمها ، من أن تقول لها « إن ملابسك غير أنيقة ، وإن حذاءك قبيح » كما يقول « مورو » .

أما عند الرجال ، فليس لهذا اللفظ ، تلك القيمة كلها .

وكلمة « الفن » لا قيمة لها عند الشاب اللاهي ليل نهار الراتع في الملذات كما يشاء ، ولكن ما أغلاها وأرفع قيمتها عند المحروم كل شيء ، القابع في داره لا يريم .

وقيمة كلمة « الرغيف » عند الغني الذي يحمل إليه في داره ، فلا يأكل منه إلا ما رقّ ونضج ، ثم يرمي بباقيه ، ليست كقيمتها عند الفقير الذي يفتش عن قطعة الخبز فلا يجدها إلا بعد الجهد والتعب الشديد .

فالأول ينظر إليه ولا يكاد يحفله .

والثاني ينظر إليه ويكاد يلتهمه ، بل يسرع في التهامه كله خوفاً أن يطير ...

ويرى الأستاذ « مييه Meillet » أن معاني الكلمات قد تختلف بالنسبة لانعزال فئة من الفئات عن الناس ، أو اختلاطها بهم ، وبالنسبة لرجولتها أو أنوثتها ، صلابتها أو ميوعتها ، انطلاقها أو عبوديتها .

فطبيعة الفئة لها أثر كبير في تبدل معاني الكلم ، لكن هذا التبدل يتسع ويشتد ، كلما رغبت تلك الفئة في الاستقلال عن غيرها ، وكلما ازدادت رغبتها في أن يكون لها كلمات خاصات بها .

وقد يؤدي هذا إلى النحت ، أو إلى إسقاط بعض الحروف ، وإضافة بعضها ، ثم إلى لغة العوام .

ثم يحدث بكلام العامي ، ما حدث بكلام الخاصي ...

وتختلف الكلمات الناميات ، فيهم القصابون من كلمة [illegible] اللسان أو الدقاقون .

أما البيئة الاجتماعية ، فتقاوم هذا وتسعى لتوحيد معاني الكلمات .

* * *

هذا ما ذكرته خطرات الأستاذ الجليل ؟ ولعلي أعود فألخص أقوال فلاسفة وعلماء ، في هذا الموضوع ، إن شاء الله .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

من معارض كتاب الديارات للشابشتي :

٢ – الدار المُعزيّة ببغداد

بقلم كوركيس عواد

٣ – لماذا بنى هذه الدار ؟

يحدثنا التاريخ ، أنّ معزّ الدولة كان مبتلىً بداءٍ عضال اشتدت عليه وطأته ، وعجز أطباء عصره عن معالجته . ذكر المؤرخ الثبت « مسكويه » في حوادث سنة خمسين وثلاثمائة أنه « اشتدّت علّة معزّ الدولة ، وامتنع عليه البول ، فاشتدّ جزعه وقلقه ، واستدعى الوزير أبا محمد المهلّبي في الليل والحاجب سبكتكين ، فأصلح بينهما عن وحشة قديمة ، وبكى وشذب على نفسه [illegible] . [illegible] آخر الليل بال دماً بشدة ، ثم تبعه رمل[1] [illegible] فلما كان من الغد ، وهو يوم الخميس [illegible] من المحرّم ، سلّم داره وكراعه وغلمانه إلى ابنه « عز الدولة » وفوّض إليه الأمور ، وجمع المهلبيّ الوزيرَ والحاجبَ سبكتكين على الوصية به ، وخرج في عدة يسيرة من غلمانه وخاصته ليمضي إلى الأهواز . وكان سبب ذلك استشعاره أن بغداد هي التي أحدثت له الأسقام ، وهي التي أفسدت عليه صحته ، وتذكّر أيام مقامه بالأهواز ، وهي أيام شبابه ووفور قوّته ، وظنّ أن الأهواز هي التي كانت تجلب له الصحة وأنها توافقه . فوصّى الحاجبَ سبكتكين والوزير المهلبي بابنه عز الدولة وبالجيش وغيره مما كان في نفسه ، وانحدر إلى كلواذى[2] . فلما صار بها أشار المهلبي بأن يُقيم ويتأمل أمره ويتفكّر فيه ولا يعجل ، فأقام بكلواذى ، وأخذ في تقدير بناء قصر . ثم انتقل إلى الشماسية[1] وقدر هناك البناء . ثم انتقل إلى قُطْرَبُّل[2] لأنها أعلى بغداد ، والهواء والماء هناك أصح وأطيب . وعمل على أن يبني من حدّ قطربل إلى باب حرب[3] قصراً . ثم صحا من علته ورأى أبو محمد المهلبي في كل ذلك بعلله ويصرف رأيه لعلمه بكثرة المؤن والنفقات التي تلزمه ، وبكراهة الجند والحاشية لانزعاجهم من أوطانهم ومألفهم ، ولكراهية تخريب بغداد وانتقال الملك عنها . فلم يزل به حتى صرف رأيه . ولما علم أنه لم يكن من البناء بدٌّ ، فيجب أن يكون متصلاً ببغداد من أعاليها ، ليكون هواؤه وماؤه أصح وألطف . . .[4]

(١) عبارة الكامل لابن الأثير (٨ : ٣٩٧ طبعة تورنبرج) : « امتنع عليه البول ، ثم كان يبول بعد جهد ، ومثله دماً ، وتبعه البول والحصا والرمل » .

(٢) ناحية كانت بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر في = دجلة سمراً . قال فيها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ إنها [illegible] « (معجم البلدان ٤ : ٣٠١) ، ولها [illegible] .

(١) الشماسية [illegible] ، أسفل بغداد ، بينها وبين [illegible] كان الموضع من أحياء وسلاطين [illegible] . وظل مقصوداً أكثر من مائتي سنة ، وتنحصر أخباره التي وقفنا عليها بين سنة ٣٢٩ و ٤٩٩ للهجرة ، راجع عنه : أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق للصولي (ص ١٤٦ و ٢٠٠ و ٢٢٨ طبعة دن) وذيل تجارب الأمم للوزير أبي شجاع (ص ٢٣٢ و ٢٣٣ طبعة آمدروز) والمنتظم (٧ : ٨٦) والكامل لابن الأثير (٨ : ٢٧٩ و ٩ : ٣٤ و ٧٠ : ١٩٨ و ٩١ : ١٥) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٨٦ طبعة صالحاني) .

(٢) قرية متدثرة كانت في شمال بغداد ، اشتهرت بخمرها ومتنزّهاتها ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . قال ياقوت (معجم البلدان ٤ : ١٣٠) : « قطربل اسم قرية بين بغداد وعكبرا ، ينسب إليها الخمر ، وما زالت متنزهاً للبطالين ، وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها » . وفي مراصد الاطلاع (٢ : ٤٠٩) ، ما يصحح خطأ ياقوت في تحقيق موقعها . فليُرجَع .

(٣) عرف هذا الباب باسم حرب بن عبد الله البلخي أحد قوّاد أبي جعفر المنصور ، كان يتولى شرطة بغداد ، وولي شرطة الموصل ، قُتل سنة ١٤٧ هـ » .

(٤) تجارب الأمم لمسكويه (٦ : ١٨٢ – ١٨٣ طبعة =

فهذه بغداد ، التي استرجعها « معز الدولة » ونسب إليها مرضه ، أبت إلا أن يمكث فيها بتأثير وزيره المهلبي الذي أبدى حكمةً في صرفه عن رأيه في الانتقال إلى الأهواز ، وحنكةً في تهيئة فكره إلى تشييد دار ، ذاع صيتها في ذلك العهد .

٤ — موقع الدار ؟

اتفقت المراجع الموثوق بصحتها ، على أن الدار المعزية كانت في محلة الشَّمَّاسِيَّة . فما هي هذه المحلة ؟ وأين كانت ؟

قال ياقوت : « الشَّمَّاسِيَّة » ، بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم سين مهملة ، منسوبة إلى بعض شمّاسي النصارى ، وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد ، وإليها يُنسب باب الشماسية ، وفيها كانت دار معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه . . . . وهي أعلى [illegible] [illegible] أبي حنيفة[1] » .

وقد أوضح ابن عبد الحق عبارة ياقوت الأخيرة بعض الإيضاح بقوله إنها « أعلى من الرصافة ومحلة الخُضَيرِيَّة[2] المجاورة لمشهد الإمام أبي حنيفة ومحلة دار الروم[3] » .

كانت الشماسيّة بالجانب الشرقي من بغداد . ذكر الشابشتي في كلامه عن « دير درمالس » أنه « في أعلى بغداد ، بالجانب الشرقي منها ، قريب من الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه بباب الشماسية . وموقعه أحسن موقع ، وهو نزهٌ كثير البساتين والأشجار ، وبقربه أجمة قصب[4] » .

وقال في « دير سمالو » إنه « شرقي بغداد ، بباب الشماسية ، على نهر المهدي ، وهناك أرحية الماء ، وحوله البساتين والأشجار ونخل ، والموضع نزهٌ حسن العمارة ...[5] » .

والشماسية قديمة العهد . وأقدم ما انتهى إلينا من أخبار [illegible] يرتقي إلى أواسط المائة الثانية للهجرة . ثم توالت أخبارها حتى سنة ٥٢٠ هـ[6] . فتكون هذه

= أمدروز) . فقد تطرّق بعض المؤرخين إلى ما جاء عن [illegible] ، انظر مثلا : الكامل لابن الأثير (٨ : ١٦٢) والبداية والنهاية (١١ : ٢٣٧) والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (٣ : ٤٢٥) .

(٩) قال ياقوت (معجم البلدان ٢ : ٧٨٣) إن المنصور لما بنى مدينة بغداد بالجانب الغربي « أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي ، وأن يبني له فيه دوراً ، وجعلها معسكراً له . فالتحق بها الناس وعمروها ، فصارت مقدار مدينة المنصور . وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن . وخربت تلك النواحي كلها ، ولم يبق إلا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليها وقوف وفراشون برسم الخدمة ، ولولا ذلك لخربت . ويتصلها محلة أبي حنيفة الامام وبها قبره ، وهناك محلة وسُوَيقة ، ولاصقها دار الروم ، ولم يبق غيره غير هذا . وفي هذه الرصافة يقول علي ابن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وكان فراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع بها في سنة ١٥٩ هـ وهي السنة الثانية من خلافته » .

ثم قال إن بهذه الرصافة « مقابر جلة الخلفاء من بني العباس وعليها تربة عظيمة بعمارة هائلة النظر عليها هيبة وجلالة إذا رآها =

= الرائي خشع لله ، وعليها وقوف وخدام مرتبون للنظر في مصالحها . وبها من الخلفاء : الراضي بن المقتدر وهو في تربة مفردة في ظاهر سور الرصافة وحده . وفي التربة قبر المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمقتفي والمستنجد » اهـ .

فالرصافة هذه كانت تحت مشهد الامام أبي حنيفة ، والمقبرة الملكية الحالية هي في أرض الرصافة .

(١) معجم البلدان ٣ : ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) الخضيرية محلة كانت ببغداد ، نسبت إلى خضير مولى صالح صاحب الموصل . وكانت بالجانب الشرقي ، فيها كان سوق الجزار (معجم البلدان ٢ : ٤٥٣) .

(٣) مراصد الاطلاع ٢ : ١٢٤ .

(٤) الديارات للشابشتي (مخطوط ، الورقة ١ ب) وهذا الكتاب قد حققناه وأعددناه للنشر .

(٥) الديارات للشابشتي (الورقة ٤ ب) .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٣٧٠ طبعة دي غويه) ، وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٩٧ طبعة هوتسما) ، وتاريخ الطبري (في حوادث السنين ١٨٩ — ٢٩٠ هـ . راجع الفهرس في طبعة =

المحلة قد ظلت عامرة مأهولة بالسكان زهاء الأربعمائة سنة ، ثم ضعف شأنها بعد ذلك . وحينما تكلم عليها ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) ثم ابن عبد الحق (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) لم تكن شيئاً ذا بال بالنسبة إلى ما كانت عليه فى سابق عهدها .

وقد اشتهر فى محلة الشماسية وفيما جاورها من أنحاء ، مواطن عديدة ، منها : دير درمالس ودير سمالو ، وقد مرّ بنا ذكرها . ومنها : « شارع الميدان » الذى كان ممتداً من الشماسية إلى سوق الثلاثاء[1] ، و « سوق العطش » ، كانت بين باب الشماسية والرصافة[2] ، و « سُوَيقة خالد » منسوبة إلى خالد بن برمك[3] ، و « قصر الطين » بناه يحيى بن خالد البرمكى بباب الشماسية[4] .

وذكر ابن النديم فى ترجمة سند بن على اليهودى المنجّم المأمونى ، أنه بنى الكنيسة التى فى سوق الشماسية فى حريم دار معز الدولة[5] . ويحكى القفطى أن هذا المنجم اتصل بخدمة المأمون ، وندبه المأمون إلى إصلاح آلات الرصد ، وأن يرصد بالشماسية ببغداد ، ففعل ذلك وامتحن مواضع الكواكب ، ولم يتم الرصد لأجل موت المأمون[1] .

إن الموضع الوحيد الذى ما زال قائماً معروفاً فى وقتنا من كل ما ذكرنا من مواطن ، هو المشهد (جامع) الإمام أبى حنيفة[2] ، وهو فى أسفل الأعظمية إحدى ضواحى بغداد ، على بُعد أربعة كيلومترات من بغداد شمالاً .

والمعروف فى وقتنا هذا ، أن « الأعظمية » وهى فى شمالى بغداد ، أرق هواءً وألطف مناخاً من بغداد ذاتها أو ما يليها جنوباً ، وهو كذلك كان فى الزمان القديم . فقد روى الجوزى أنه فى سنة ٣٧٩ هـ « انتقل السلطان شرف الدولة (ابن عضد الدولة البويهى) إلى قصر معز الدولة بباب الشماسية ، لأن الأطباء أشاروا عليه وزعموا أن الهواء هناك أصح ، وكان قد اعتلّ به المرض من سنة ... فانتقل ... من بغداد ... [3] » .

نستنتج من جميع ما تقدم ، أن الشماسية كانت تقوم فى أعلى الأعظمية ، أى فى البقعة المعروفة اليوم باسم « الصليخ » ، كما أن الدار المعزية كانت بإزاء ذلك على ضفة دجلة اليسرى .

(انتهى) كوركيس عواد

= دى غويه) ، وصلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى (حوادث السنين ٢٩١ — ٣٢٠ هـ . وراجع الفهرس فى طبعة دى غويه) ، والأغانى (٥ : ١٢٧ و ١٠ : ١٣٢ طبعة دار الكتب المصرية) ، والمنتظم (٦ : ٣١٧) ، ومعجم البلدان (٣ : ٤١٩) ، والكامل لابن الأثير (فى حوادث ١٩٧ — ٥٧٠ هـ . وراجع الفهرس فى طبعة تورنبرغ) .

(١) معجم البلدان ٩ : ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) معجم البلدان ٣ : ١٩٤ .

(٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى (ص ١٨٩ طبعة الحلبى) ومعجم البلدان ٣ : ٢٠٠ .

(٤) الوزراء والكتاب (ص ١٨٩) ومعجم البلدان ٤ : ١٩٤ .

(٥) الفهرست لابن النديم (ص ٢٧٥ طبعة فلوجل = ٣٨٣ طبعة مصر) .

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (ص ٢٠٦ — ٢٠٧ طبعة ليبزك) .

(٢) راجع عنه : تاريخ مساجد بغداد وآثارها للسيد محمود شكرى الآلوسى (بغداد ١٣٤٦ هـ ، ص ٢٠ — ٢٦) ، وبغداد فى عهد الخلافة العباسية تأليف لسترنج Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924, pp.191—194) أو انظر ص ١٦٦ — ١٦٩ من ترجمته العربية للأستاذ بشير فرنسيس ، المطبوعة فى بغداد سنة ١٩٣٦ .

(٣) المنتظم ٧ : ١٤٧ .

فتش عن الرجل

تعود أكثر الناس لا سيما الرجال كلما وقع في الدنيا حادث جلل أو خطب فادح أن يقولوا ويرددوا هذا القول «فتش عن المرأة» . فإذا رأوا قتيلا أو غريقا أو عرفوا شابا قد انتحر ، أو بيتا سرقه اللصوص أو زوجا شريفا هجر بيته وأسرته ليبيت في الحانات أو خصومة قامت واحتدمت ، صرخوا جميعا بصوت واحد أو دارت بينهم الهمسات والوشوشات بقولهم : فتش عن المرأة ...

هذا القول الظالم البغيض يردده الشرقيون والغربيون في الويلات والنكبات ، ويجعله الصحفيون عنوانا لبعض الأخبار في صدور الجرائد لما فيه من إغراء وتنبيه وظني أن كثيرا من المتعلمين والمثقفين إذا اطلعوا عليه أو سمعوه حسبوه لحكيم من حكماء الغرب أو [illegible] رجعوا إلى ذخائر الأدب عند العرب [illegible] عربيا ومجهولا سبق بطل الفرنسيين إلى هذا القول في قوله :

إذا رأيت أمورا ... منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها ... من النساء تأتت

وأصل قائلها كان من أعداء المرأة على نحو ما فعل بعض أدباء الغرب وشعراء العرب في الأيام الخالية ، أو على مثال ما يفعل في زماننا توفيق الحكيم الكاتب المصري المشهور بعداوته المصطنعة للمرأة التي لولاها لما أبدع في فنه ، ولما أوحيت إليه أشتات الفكر وأفانين الأدب ، ومثل هذا المعنى كثير في أشعار العرب القدامى والمحدثين ، وقد نظمه أديب من هؤلاء في قوله :

إن حادث يوما أهمك شأنه ... وجهلته فابحث عن النسوان

إني رأيت الشر إلا قله ... منهن مصدره على الإنسان

لو غاص أعداء المرأة الألداء أو المتظاهرون بالعداء إلى أعماق الحقيقة والواقع وتجردوا من كل عصبية وبغضاء لما جعلوا المرأة موضع هزئهم ولومهم في كل حين ولا اتهموا براءتها أحيانا بما يصمونها به ظلما وعدوانا ، وحاشا أن أزعم أن المرأة معصومة من الشر كاملة في سجاياها لا تصدر عنها نقيصة ولا دنيئة ، وأدعي أنها ملاك من الملائكة ، فكم بين النساء من حية رقطاء وداهية دهياء ، تحوك الفتنة وتنصب الرزايا ، كامرأة العزيز التي جنت على يوسف ، فلبث في السجن بضع سنين ، وهذه المرأة نفسها لو عصمها العزيز من جمال يوسف ، لكانت في نجوة من هواها الأثيم .

ومن العجب أن تتعالى أصوات الرجال من رعاة الشريعة والقانون ، ورعاة الأسر والبيوت في بلاد الشرق والغرب بشكاية النساء ، وتحذير طائفة منهن في مهاوي الرذائل والموبقات ، وهم المسئولون عن خيرهن وشرهن ، فهم يجهلون أو يتجاهلون أنهم كانوا منذ كانت المرأة سببا في صلاحها أو فسادها ، في سعادتها أو شقاوتها ، ولو استقصينا التاريخ لرأينا أن أكثر فجائع الدهر التي حلت بالمرأة [illegible] الملامة فيها كان سببها الرجل ، فها هي ذي المرأة التي [illegible] الزمان في الخطيئات الآثمات ، وهم رجموها الراجمون لولا حكمة المسيح عليه السلام — من يدري أنها لولا أحبولة الهوى التي أوقعها فيها أحد الرجال ، لكانت إحدى القانتات الطيبات .

ولنعد القهقرى إلى الحرم الأول تجد حواء تتهادى في مقاصير الجنات ثم يوسوس لها الشيطان أن تأكل من شجرة الخلد لتحظى بملك لا يبلى ، فإذا بها تطيعه وتغري آدم بهذا الطعام ، فيكتب الخالق على الخلق حياة الأرض ، ويسقيهم بعد نصب العيش كأس الفناء ، وينطوي البشر جيلا إثر جيل يلومون حواء حين تدهمهم الخطوب والهموم فيقولون لولا حواء ... وقد فاتهم جميعا أنها لم تكن هي علة الشقاء ، وإنما كان إبليس ، وضميره واسم إشارته في علم النحو يدلان على أنه من طائفة الرجال لا من طائفة النساء فهل من العدل أن نرمي حواء بأبد البلاء ، ثم نرث بلاءها

من بعدها تركه هذا التوأم أبد الأيام والأعوام ، فيقال في كل حين وفي كل محنة : فتش عن المرأة ؟!

ما رأينا في قديم الدهر وحديثه امرأة اخترعت بندقية أو مدفعاً ، ولا فتاة صنعت مدية أو سهماً ، ففي الدنيا رجال سكبوا الحميم على الآمنين ، وصبوا سوط عذاب على الأبرياء ، لم تبلغ مبلغهم نساء في الجور والطغيان ، وإن أوزار الحروب وفوادح الخطوب مصدرها ابن آدم لا ابنته ، فهو الذي اخترع وسائل الدمار ومتالف الحياة ، ومن من الناس لم يبلغه حديث ابني آدم ، إذ قتل أحدهما الآخر ظلماً وحسداً ؟ فكانت أول يد تلطخت بالدماء هي يد الرجل ! سلوا خبايا المقاصد ، في مطاويها بقايا من ضحايا رجال ، لعل الواحدة تقول :

كنت عنده خادماً فسطا بي .

وتقول الثانية : أحرجوني فأخرجوني .

وتقول الثالثة : خطفوني وتركوني .

وسلوا محاريب العبادة وصوامع التنسك [illegible] عذارى زاهدات ، وكأن بإحداهن من تقول :

— خان حبي وسحق قلبي .

وتقول الثانية : سلبني مالي وسيطر على ميراثي .

ألا أيها الرجال اللوامون فتشوا عن أنفسكم قبل أن تفتشوا عن المرأة ، هذه البهارج الغالية والخلاعات الطاغية لمن تروج وتبدو ؟ وفيم تروج وتغدو ؟ أليست لمرضاة الرجال !

كيف ينشدون في المرأة عصمة وكمالاً ، وهم لا يحبون فيها ما يرضي عقولهم دون قلوبهم ! وفيهم من يلهي عما يهوى بها إلى السوء ثم يأخذ بيدها إليه ويدخلها فيه ، وفيهم من يؤثر المتبرجة الخليعة على الحصان الرزان ، وفيهم من يستحي أن يماشي زوجه في الطريق إذا لم تكن كالمسية في زينتها .

إنها أيها المرأة لبيوت الرجال وأهوائهم الظاهرة والباطنة وكيفما يكونوا يكن ، فهم إذا شاءوا جعلوها ملاكاً أو سخروها شيطاناً ولله در من قال :

فهي شيطان إذا أفسدتها   وإذا أصلحتها فهي ملك

هي نبع فاشربوا منه سائغاً طهوراً ، ولا تعكروه بالقذى أو ترموه بالحجارة ...

هي قيثار فوقعوا على أوتاره الأنغام العذاب التي تبدد الآلام وتنشر الوئام والسلام .

فتشوا عن المرأة في تضميد الجروح ومواساة المرضى وإسعاف البائسين .

فتشوا عنها في أطوار الأمومة الرحيمة ، فهنالك أقصى غاية الجود والتضحية ، تسهر لينام أولادكم وتجهد ليستريحوا وتفديهم بالروح مهما أساءوا .

فتشوا عنها وهي منار سعادتكم وحياتكم ومثار حبكم وحنينكم .

فتشوا عنها في العزاء والوفاء ، في الحنان والإحسان .

فتشوا عنها وهي أم الرسل والأنبياء الذين كانوا الهدى [illegible] .

فتشوا عنها وهي [illegible] الأطباء والعلماء الذين خففوا مواضع الشر وثقفوا عقولهم ورفعوا دنياهم .

فتشوا عنها وهي منجبة العظماء الذين كتبوا لأممهم سجل الخلود والأمجاد مدى الآباد .

(دمشق)   **وداد سكاكيني**

استدراك

وقع خطأ مطبعي في قصيدة « ذكرى المولد النبوي » بالعدد الأخير « ٢٤٠ » فسقط الشطر الثاني من بيت :

بلسم يشفي كل جرح ولو كا   ... ن ....

والشطر الأول للشطر ...   ن فؤاد بين الجوانح صلدا

وصحة البيتين هكذا :

بلسم يشفي كل جرح ولو كا   ن برى في الأسى بليغاً مجيدا

وحنان لو كان قسم ما كا   ن فؤاد بين الجوانح صلدا

وظيفة النقد

روى عن وردزورث الشاعر الإنجليزي الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر أنه قال « ليست المقدرة على النقد عندي قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل أحط شأنا من ملكة الخلق والابتكار . ولو أن الوقت الذي يبذل في نقد الآثار الأدبية يبذل في الأدب الإنشائي — من أي نوع كان — لكان ذلك خيراً لنا وأجدى . الإنشاء يبين للكاتب مقدرته الحقة ، ولا ينجم عنه من الشر مثلما ينجم عن النقد . إن النقد الباطل أو الذي ينطوي على الحقد والضغينة يفسد عقول القراء ، في حين أن الإنشاء — مهما قل شأنه — في النثر أو في الشعر ، لا يعود على قرائه بضرر أو أذى » .

ويقول ماثيو آرنلد — وهو من أكبر النقاد الإنجليز في القرن التاسع عشر — رداً على هذا القول : إنما نخالف الطبيعة الإنسانية كثيراً إذا طلبنا إلى رجل له قدرة خاصة على لون معين من ألوان الأدب أن يتخلى عنه للاشتغال بغيره ، وأن يحاول ما ليس في وسعه ، فينصرف عن النقد إلى الإنشاء ، لأن ذلك في مصلحة الجماعة التي ينبغي أن تكون فوق مصلحته . ولكن إذا كان النقد باطلا أو منطويا على الحقد والضغينة — كما يقول وردزورث — فليس منا من يجادل في أنه خير للأدب وللناس أن لا يشاع هذا النقد بين القراء . ولا يجادل أحد كذلك في أن ملكة النقد أقل شأنا من ملكة الإنشاء . ولكن هل من الحق أن النقد في ذاته يحمل فيه ضرر وأذى ؟ وهل من الحق أنه من الخير لنا أن نبذل الوقت الذي ننفقه في نقد الآثار الأدبية في الأدب الإنشائي من أي نوع كان ؟ هل من هل من الحق أنه كان من الخير لنا وجنسن (وهو من أدباء القرن الثامن عشر) لو أنه أخرج لنا مسرحيات من طراز مسرحيته « إيرين » ووفر على نفسه الجهد الذي بذله في كتابه « حياة الشعراء » ؟ بل إني أقول هل كان من الخير للأدب لو أن وردزورث نفسه خصص الوقت الذي صرفه في كتابة مقدمته النقدية الشهيرة ، وفي تلك الكتابات الأخرى لكتابة عدد آخر من القطوعات الشعرية ؟ لقد كان وردزورث نفسه ناقداً كبيراً ، وإنا نأسف كثيراً لأنه لم يخصص من وقته للنقد أكثر مما فعل ، وكان جديراً أن يكون من أكبر النقاد ، وإنا لسعداء بالقدر الكبير الذي خلفه لنا من النقد .

لا شك في أن وردزورث كان مبالغاً أشد المبالغة في نظريته ، ولكنه يشككنا في قيمة النقد ، ويبعث الناقد على التساؤل : ما فائدة النقد ؟

ولا مراء في أن المرء لا يجد سعادته إلا في الخلق والابتكار ، ولكنا يجب أن نذكر أنه ليس من الضروري أن يكون الابتكار في الأدب أو في الفن ، وإلا لما تمتع بالسعادة غير أفراد قلائل جداً — وأولئك هم الأدباء المشهورون . ويستطيع المرء أن يبتكر وأن يخترع في فروع أخرى من المعرفة والعمل . وقد يجد في النقد نفسه مجالا للخلق والابتكار . ويجب أن لا يغيب عن الذهن كذلك أن الابتكار في الأدب أو في الفن ليس ممكنا في كل العصور وكل الظروف ، وقد يكون الجهد فيه بغير جدوى ولو بذل هذا الجهد في التمهيد له وفي جعله ممكنا لكان أجدى . وذلك لأن الذهن المبتكر لا يستطيع أن ينتج إلا إذا توفرت له العناصر والمواد الأولية — كالبناء ليس بوسعه أن يشيد البناء بغير الملاط والحجر . هذه المواد الأولية في ميدان الأدب هي « الأفكار » خير الأفكار الشائعة في العصر في كل موضوع يمسه الأدب . ولا خير في الإنتاج الأدبي المبتكر إذا لم يتعرض لهذه الأفكار ويعالجها ، وأقول الأفكار الشائعة ولا أقول الأفكار الجديدة البتة ، لأن العبقرية الأدبية الخالقة لا تتجلى في كشف الآراء الجديدة . إنما هذا عمل الفيلسوف ، وإنما عمل الأديب

التابع أن يتناول الكليات ويعرضها أجزاء مفصلة مدعمة بالمثال — فهو عمل تركيبي ، ولا يتناول الجزئيات ويصل بها إلى الكليات ويكشف الحقائق ، لأن هذا عمل تحليلي ليس منه شأن الأديب . الأديب يستمد الوحي من الجو الفكري السائد ومن الآراء الشائعة ، ثم يعالج هذه الآراء بيد صناع فيخلق منها آثاراً فنية رائعة ويعرضها عرضاً جذاباً يخلب العقول ويخطف الأبصار . وليس الاهتداء إلى هذه الآراء — وهي مواد الأدب الأولية — بالأمر اليسير ، ولهذا كانت عصور الابتكار في تاريخ الأدب نادرة جداً ، وكان هنالك كثير من الأدب الرخيص المبتذل الذي يتشبه أحياناً عباقرة الأدب أنفسهم .

لا بد لإنتاج العمل الفني الرائع من قوتين : قوة الرجل المنشىء ، وقوة العصر الذي يعيش فيه . وذلك أن الأديب المنشىء — مهما يكن شأنه — بحاجة إلى الإلمام بمختلف المعارف . وبحاجة إلى من يقدمها له يتناول منها ما شاء حيثما شاء ، وهذه هي وظيفة الناقد [illegible] المختلفة في الدين والفلسفة والتاريخ والفن والعلوم . الناقد يخلق للأديب بيئة فكرية وجواً من الآراء ، وهو يعيد الأشياء إلى حقيقتها ، ويحكم على الفكرة بالحياة أو بالموت ويحاول أن لا تسود بين الناس غير روائع الآراء . فهو يبشر بالحق ، ويهز كيان الجماعة بقوة فتتمخض الجماعة عن عصر من عصور الإنشاء في الأدب .

ولزيادة الإيضاح نقول إن الشاعر — مثلاً — ينبغي أن يعرف الحياة وطبائع الناس قبل أن يعالجها في شعره ، والحياة وطبائع الناس في الأزمنة الحديثة شديدة التعقيد ، ومن ثم كان الشاعر المبدع بحاجة إلى الناقد الذي يبرز له الحقيقة ناصعة واضحة ، فيتغنى بها في شعره وينشىء فيها روائع القصيد ، ولعل هذا هو السبب في أن « بيرن » لم يرتفع إلى السماء التي كان يحلق فيها « جيته » ، وكان كلاهما ذهن قادر على الابتكار والخلق غير أن جيته كان يعيش في جو من الثقافة الصحيحة لم يستنشق ريحه « بيرن » ، فأدرك الشاعر الألماني من حقائق الحياة وطبائع الناس ما لم يدركه زميله الإنجليزي .

هذا الجو المشبع بالثقافة الصحيحة ، والذي يخلقه الناقد ، لم ينتشر في انجلترا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فكان الشعر في هذه الفترة — وهو الشعر الرومانتيكي الذي اعتمد على الخيال والعاطفة — خلواً من المعرفة الكافية ، فلم يتزود وردزورث ، وكولردج ، وشلي وكيتس ، بالعلم والمعرفة ، فأتاحهم بم من العبقرية الذهنية ، ولكن لا يكشف عن سعة الاطلاع ، ولا يحسب القارىء أن الكتب وحدها هي سبيل تحصيل المعرفة ، فقد كان شلي كثير الإدمان على مطالعتها ، وكذلك كان كولردج ، في حين أن وردزورث وكيتس لم يطالعا من الكتب غير القليل ، كما أن [illegible] كثيراً منها كان أقل من القليل . ولكن [illegible] وسوفوكل ، واعتقدوا لعهد [illegible] تتموج فيها الحياة تموجاً ، وكانت الحرية فيها مشبعة بالرأي الناضج والفكر الصحيح ، وفي هذا غناء للأديب عن الكتب والمطالعة وباعث له على الخلق والإنشاء . والشاعر في ألمانيا في عصر جيته وفي انجلترا في عصر أليزابث كان يعيش في جو زاخر من الفتوح والتقدم وكان جيته في ألمانيا يحيا في عصر ثقافة ونقد ، ولكن انجلترا في أوائل القرن التاسع عشر لم تشغلها الفتوح ولم تغمرها الثقافة ، فجاء الشعر الرومانتيكي مفتقراً إلى النظر العميق وفهم دقائق الوجود ، وهو ما يقوم به الناقد ذو البصيرة النافذة ، إذ النقد الصحيح هو الأساس الذي يشيد عليه الأدب البناء .

ولكي يؤتي النقد ثمرة طيبة ينبغي أن يتجرد عن الغرض ، وألا ينصرف فيهبط إلى الحياة العملية . الناقد يجيل ذهنه في كل موضوع عرض بغض النظر عما لهذا الموضوع من علاقة بعمل من الأعمال أو من صلة بالسياسة أو بالأغراض . إنما الناقد يستخرج خير ما عرف الإنسان وخير ما فكر فيه في أي بلد من البلدان ، ثم ينشر

هذه المعارف القيمة في أمانة وإخلاص ، ويخلق بها جوا من الآراء الصائبة الجديدة ، ولا يهمه ما يترتب على نشر هذه الآراء من نتائج . وليس للناقد أن يناصر أو يناهض حزبا من الأحزاب أو رأيا من الآراء السياسية أميل إليه لأنه لا بد لكل حزب أو رأي من ناقد يدفع عنه طعون الأحزاب والآراء الأخرى ، ولكن مثل هذا الناقد لا يؤدي رسالة النقد المقدسة .

الناقد المخلص لنقده يوجه أبصارنا إلى الحق والخير والجمال ، ويشعرنا بقصورنا عن إدراك الكمال ، ويدفعنا إلى السير في سبيله . في حين أن الناقد المتحزب يعمي بصائرنا لأنه يحاول أن يصور لنا أن الحزب الذي ينتمي إليه ويدفع عنه قد بلغ أوج الكمال . يقول جيته « إن الشوط الذي قطعه الإنسان في طريق التقدم يبدو لنا قصيرا حينما نمد البصر إلى الأمام ونرى مقدار ما يبقى لنا أن نقطعه » ، والناقد هو [illegible] .

وقد يحسب القارئ أن إمعان النقد في [illegible] يبعده عن الواقع ، ويجعل أثره في تقدم الإنسان بطيئا وحقا إن النقد قد يكون بطيء الأثر ولكنه محقق النفع والفائدة . إن أكثر الناس لا يرون الأشياء على حقيقتها وكثيرا ما يقنعون بالرأي الناقص والفكرة الخاطئة ، وعلى هذه الآراء الناقصة والأفكار الخاطئة يقوم معظم النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يشكو الناس جورها وعسفها . الحق لا يراه إلا القليل من الناس وهؤلاء هم النقاد المبصرون ، وعليهم وحدهم يتوقف نشر الرأي الصائب وسعادة الإنسان . إن الحياة العملية كالرحى سريعة الدوران تجذب إليها المرء دون أن يقف لحظة يتدبر أو يفكر . وأما الناقد هو الذي لا يخضع لهذه الرحى ، وهو بذلك يخدم الرجال العاملين .

الرجل العملي لا يدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء وفي هذه الفروق الدقيقة يكمن الحق والمعرفة الصحيحة وليس من السهل أن تنير وجهة الرجل العملي الذي اعتاد أن ينظر إلى الأمور من ناحية واحدة ، وليس من اليسير أن نبرهن له أنه لا يملك حجة الصواب فعمل الناقد إذن شاق عسير ، وينبغي له أن يتحلى بالصبر ، وأن لا يستعجل ثمرة ما يرمي إليه من إصلاح ، ويجب أن يكون واسع الثقافة حتى يميز بين الغث والثمين ، وأن لا ينشر الرأي إلا بعد الدرس والتمحيص وأن لا يخشى في الحق لومة لائم . يقول جوبير « إن الجهل في الأمور الخلقية يخفف الجريمة ، ولكنه في الأمور الفكرية جريمة من أكبر الجرائم » ، وقد تغتفر الزلة يقع فيها الكاتب الناشئ ، ولكن الناقد ينبغي له ألا يزل أو يخطئ . الكاتب المبتكر كالمتهم قد يثبت القاضي براءته أو جرمه ، في حين أن الناقد هو القاضي الذي يحكم ، وعليه أن يلزم حدود العدل والإنصاف ، وهو عرضة لأن يخطئ الناس فهمه لأن غالبية الناس تستمد عقائدها من الحياة العملية التي تخطئ [illegible] الصواب ، ولا تحتمل الفكر المجرد يقول جيته « العمل يسير والتفكير عسير » ، والناقد في كثير من الأحيان يقف مقاوما في وجه التيار العملي الذي يسبح فوقه الناس ، والمقاومة كما نعلم عسيرة ومخاطرة حين تصطدم مع الدين أو قواعد العلم المقررة .

ونستطيع في كلمة موجزة أن نقول « إن الناقد رجل يسعى سعيا منزها عن الغرض إلى إدراك خير ما عرف الإنسان وما أنتجت القرائح في أنحاء العالم أجمع ، ثم يذيع بين الناس نتائج بحثه فيخلق جوا من الآراء الطريفة الصحيحة » . ولم يعرف في التاريخ أن أمة واحدة عرفت خير إنتاج القرائح البشرية . ولذا كان من واجب الناقد أن يطلع على إنتاج الأمم الأخرى جميعا .

الناقد يعرف ويحكم ، ويقدم للقراء معرفته مقرونة بحكمه ، ولكنه يجب أن يذكر دائما أن المعرفة أهم من الحكم عليها .

محمود محمود

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليَّ تبعته وحدي ... ... "

مدرسة شوقي — بناتي ! — آداب اجتماعية !

مدرسة شوقي ...

قضيت شطراً من الليل أسمر مع « شوقي » في ديوانه . لقد ذهب شوقي الشاعر إلى ربه منذ عشر سنين ، ولكن قلبه مازال حياً ينبض بأفراحه وأحزانه ووساوس نفسه في هذه الصفحات المقروءة التي خلفها من بعده حديثاً يُروَى وخبراً يُؤثَر ! لقد كان شوقي شاعر هذه الأمة ، ومازال مكانه — على مرّ السنين — خالياً لم تشهد قرونه بعدُ شاعراً من شعراء الجيل على ما افتنّ الشعراء بعده في مذاهب القول واستحدثوا من فنون الشعر ... ...

... وانتهيت من الديوان عند قصيدة [illegible] « المطرية » في الجزء الأول ، تحدث بأمانيها إلى سعد زغلول وزير المعارف يوم كان ، فطلب إليه أن ينشئ مدرسة ابتدائية في هذه الضاحية ، وكان شوقي يومئذ يسكنها ، وصغاره يطلبون العلم في مدارس القاهرة ، يُقلّهم إليها القطارُ كل يوم في الغدوّ والرواح ؛ ووقفتُ من القصيدة قوله :

بَنِيَّ يا سعدُ زُغْبُ القطا
لا أقصى اللهُ لهم من عِداة
إنْ فاتك النسلُ فأكرمْ بهم
وربَّ نسلٍ بالندى يُستفادْ
أخشى عليهم من أذى راغمٍ
يجمعهم في الفجر والعصر غادْ (1)
صغيرهُ يشقى راحتي
ويمنع الجفنَ لذيذَ الرقاد !

يعقوبه من ذئب بكى مشفقاً
فكيف أنيابُ الحديدِ الحداد ؟
فانظر رعاك اللهُ في حاجهم
فنظرةٌ منك تنيلُ المرادْ ...

وقد استجاب « سعد » لنداء « شوقي » فكانت مدرسة الزيتون ولا تزال ؛ وإني لأمرّ عليها غادياً ورائحاً وأنظر الثلاث من أبناء الضاحية غادين إليها أو رائحين عنها يتأبطون كتبهم أو يحملون حقائبهم ، فأذكر شوقي وبنيه والآلاف من « زُغب القطا » الذين خرّجتهم هذه المدرسة منذ كانت وما تزال تبذل المعونة لتخريج الآلاف من إخوتهم ومن بنيهم ؛ ومن حَفَدَتهم أيضاً ؛ فهل يعرف هؤلاء جميعاً من يذكر شوقي ؟

لقد اقترح البرلمان في الدورة الماضية تخليد ذكرى شوقي بتمثال يقام له في « الأوبرا » ؛ أفلم يكن أجدر أن يكون من مراسم تسمية هذه المدرسة باسم شوقي ، وأن تكون لها جائزة سنوية باسمه يكتتب لها سكان هذه الضاحية الممتدة من « القبة » إلى « عين شمس » فالمرج ، فالخانكة ، ويمنحها الفائزُ الأول أو الفائزون الأوائل في اللغة العربية من خريجي المدرسة ؟ ...

وددتُ ولكن ... ...

بناتي !

... ولكني لم أبدأ هذا الحديث لأكتب عن « مدرسة شوقي » أو « جائزة شوقي » ؛ فإن لذلك أواناً آخر لعله أكثر مناسبة ، ولكن منظراً رأيته ذات صباح من الأسبوع الماضي لم أنسه منذ رأيته ، ولا يزال وجه ابنتي الصغيرة يذكرني إياه كلما هممتُ أن أنسى ...

... كان المطر ينهمر كأنما تنصبّ الدلاء ، فلا تكاد دارٌ في المدينة أن تعصم من فيها من أذى السيل ؛ وكان البرد يلفح الوجوه فما تفرق بين لسعته وحرّ النار ؛ وكان

(1) يعني القطار .

الضحى وما يزال ظلّ الليل على وجه السماء، فلولا حساب الحاسب لجهل الناس أنهم في النهار ...

ووقفت ساعة أؤامر نفسي قبل أن أجد العزم على الخروج من داري بالمطرية في ذلك اليوم العابس، ثم اقتحمت الطريق تحت السيل المنهمر، ووجهت وجهي نحو « المحطة »، ولم يكن ثمة غيري وغير قليل ممن يقصدون « الديوان » أو يطلبون العيش؛ ولكن ما هذا الذي أرى على مبعدة؟ إنها فتاة لم تعدُ الطفولة، وإنها لتحمل بيمينها مظلة وحقيبة وتستند إلى جدار؛ ما خطب هذه المسكينة وما حاجتها؟ ...

هلا! صبيحة! ما خرّج بك الساعة يا بنية وكيف رضي أبوك؟ ... ونظرت إليها وقد ابتلّت ميدعتها حتى ما تمنع عن صدرها وطوبة للماء، فعرفت أن تقيد! ... إنها في هذا المكان بين الرياح الأربع في المطر الدائم تنتظر سيارة المدرسة تحملها إلى « مصر الجديدة »! وأين « المطرية » من مصر الجديدة؟ ولكن هكذا [illegible] وزارة المعارف لبنات هذه الضاحية، وماذا [illegible] وليس ثمة مدرسة أقرب إليهن من مدرسة [illegible] أو مصر الجديدة؟

قلت: فلماذا يا ابنتي لم تلزمي اليوم دارك أو تنتظري السيارة وراء زجاج النافذة من دار أبيك؟

قالت الصغيرة الغارقة في ثيابها: اليوم « اختبار الفترة » وما أريد أن يفوتني، ثم إن سائق السيارة لا يعرّج على التلميذات داراً داراً، وإنما علينا أن ننتظره في هذه « المحطة » من الطريق العام!

قلت: حتى في هذا اليوم!

وهممت وبي نحة تنبق العبرة في وجهي حتى لم أكد أرى، فاستدرت ومضيت بالصغيرة في رجعتها إلى دار أبيها والأرض تحاذي الخطا تمشي الهيْد ... !

... لم أنس هذا المنظر منذ رأيته، ولا يزال وجه البلي يذكرني إياه كلما هممت أن أنسى؛ وها أنذا أقرأ الساعة أبيات شوقي وما كان أرقها فأسف أشد الأسف لأن شوقي لم يكن له يومئذ بنيات! إذن لكان المطرية اليوم « مدرسة بنات » فلا تتجشم « صبيحة » بنت صديق ذلك المشوار كل يوم إلى مصر الجديدة ولا تتجشمه أمثالي في غد!!

ومع ذلك فماذا كانت ضاحية المطرية منذ ثلث قرن يوم أنشأ سعد زغلول مدرسة الزيتون ليتعلم فيها بنوها وبنو شوقي وماذا هي اليوم؟ ... إن سكان هذه الضاحية ليبلغون اليوم عشرة أمثال ما كانوا يومئذ أو يزيدون؛ أفليس من حقهم أن يكتبوا اليوم لنجيب الهلالي يقولون:

« بناتنا يا نجيب! .... »

وما يزال لشوقي دار في المطرية تحمل اسمه في أفواه الشيوخ من السكان؛ أفليس من الوفاء لذكرى شوقي أن تتخذها [illegible] المدرسة حتى يتصل ماضيها في العلم بحاضرها ويتجدد اسم شوقي في المطرية على أفواه الشبان والشابات؟ [illegible] بناتنا في العلم عليه حق الوفاء!

[illegible]

في جريدة من جرائد الأسبوع قرأت « الإعلانين » الآتيين:

« زار معالي وزير ... بمنشق ... حضرة الشيخ فلان، شقيق الشيخ فلان عضو مجلس مديرية الجيزة، والشيخ فلان من أعيان أطفيح! »

* * *

« أقيمت أمس حفلة رائعة، ابتهاجاً بزفاف الآنسة النبيلة فلانة، كريمة الوجيه فلان؛ وشرف الاحتفال كبار موظفي المديرية، وأعضاء الشيوخ والنواب، وفضيلة العمدة، و... ؛ وتناول الجميع أفخر الأطعمة وانصرفوا يلهجون بكرم الداعين! ».

والجريدة — قطعاً — لم تنشر ما نشرت تطوعاً لوجه الشيخ الريفي وشقيقيه، والوجيه فلان وابنته

الآنسة « النبيلة » ، ولكنه « إعلان مأجور » يساوى كذا من الجنيهات بحساب الأسطر والكلمات يدفعها كاتبه أو طالبه والمتشفع بإذاعته ؛ فأىّ هؤلاء المذكورين « أعلاه » طالبه وكاتبه والمتشفع بإذاعته ؟ وما منفعته وجدواه ؟

... لو كنتُ أنا الوزير المذكور فى ذلك الإعلان لامتنعتُ منذ اليوم عن زيارة مريض فى داره ، أو فى المستشفى ، تصوّنًا وكرامة ؛ ولأنكرتُ أن تكون لى صلة بالشيخ فلان عضو مجلس المديرية ، والشيخ فلان عين الأعيان ؛ حذرَ أن يكون المقصود من هذا الإعلان الرذل هو اكتساب الجاه والسمعة على حساب المرض ، أو على حساب المجاملة ؛ ومن يدرى ؟ لعل قارئًا من ذوى الحاجات أن يقرأه فيتوهّم وهمًا ويحسب حسابًا ويأمل أملًا ، ثم لا تقضى له حاجة ، أو لعل حاجة أن تقضى بغير شفاعة ولا وسيلة ، ويبقى فى [illegible] فى السوق قلة ثمنه ... !!

... ولو كنتُ مدعوًّا فى [illegible] الآنسة « النبيلة » لجعلتُ هذا الإعلان سببًا إلى رفض كل دعوة إلى مأدبة من بعد ، ولو كانت لزفاف بنت أختى ، فليس أسمج ولا أثقل ممن يدعونى إلى طعام ثم يمنّ علىّ فى جريدة ذائعة بما قدّم إلىّ من « أشهى الأطعمة » مثنيًا على نفسه ، منوّهًا بكرمه وفضيلته !!

ماذا يعرف « الوجيه » فلان ، وشقيق الريفى فلان ، من آدابنا الاجتماعية ؟ ... ولكنى أريد أن أعرف فعلًا ما هى آدابنا الاجتماعية ؟ ... أى جملة أعمالنا الخاصة والعامة ما يصح أن نسميه آدابًا اجتماعية ؟ ...

... هأنذا عائد من عملى فى « الديوان » منذ لحظات ، لا أكاد أحمل رأسى من فرط الجهد ، وها هى ذى الخادم تمدّ لى الطعام وإنى لأستعجلها به مما بى من جوع ؛ ولكن ماذا أسمع ؟ هذا جرس الباب يدق ، وإن رجلًا بالباب ... إنه زائر صحبتُه فى الديوان يتابع خطاى إلى الدار بشهوة الفراغ والطلعة ...

... قالت له الخادم : سيدى على الطعام !

وقال الزائر : قولى له : لا عليه من أن أشاركه فى الطعام وإنما أريد لقاءه !

قالت : فهل تعود بعد ساعة ؟ إن سيدى متعب !

قال : وأنا متعب مثله فما أطيق أن أذهب وأعود !

ثم مضى ليلقانى بالديوان فى غد فيتهمنى بسوء الأدب !

فهذا رجل يزعم أنه يعرف الآداب الاجتماعية .

وهذا آخر قصد إلىّ أمس يطلب شفاعتى لحاجة من حاجاته ، قلت له : يا صديق ، حسبتُك أوثق صلة منى بولىّ هذا الأمر !

قال : بلى ، ولكنها حاجة صغيرة فلا أريد أن أسعى إليه من أجلها !

[illegible] وانصرفتُ عنه كأنْ لم أسمع ، فنهض مغضبًا وهو يقول : [illegible] !!

[illegible] الأول أنه يعرف الآداب الاجتماعية !

[illegible] القارئ ذات مرة على بطاقة دعوة بالنص الآتى :

« يتشرف فلان بدعوتكم [illegible] ... وسيشرّف الاحتفال كثير من ذوى الشخصيات البارزة ! »

أى مدعوّ يحترم نفسه يجيب هذه الدعوة ؟

وهل قرأت مرة فى أخبار الوفيات من بعض الصحف مثل الإعلان الآتى :

« فاتنا أن نذكر فى نعى فلان باشا أمس أنه قريب زوج أخت فلان الموظف بمصلحة التنظيم ! » .

إن فى صفحة الوفيات من بعض الجرائد لصورة تنطق وحدها بمقدار فهم الناس فى هذا البلد لمعنى الآداب الاجتماعية ، وإن فيها وحدها التكذيب الصريح [illegible] لأحد أن يزعم أن لهذا البلد آدابًا اجتماعية !

« قاف »

قصة شهرزاد :

أحلام شهرزاد

كانت أحلام شهرزاد هي التي حركتنا للكتابة، وكان جديراً بنا أن نبدأ الكتابة عنها، وأن نمهد قبل التقدم على شهرزاد الحكيم، وعلى قصص ذي نزعة دينية من قبلها، وعلى القصر المسحور من بعدها، ولكن الحديث كما يقولون ذو شجون، وإذا كان علينا أن نعتذر فعذرنا أننا ما كنا نقدر أن نقول كل ما نشاء أن نقوله استطراداً من معنى إلى معنى، وانتقالاً من موطن إلى موطن، لأن الذي يجب أن يتكلم عن أحلام شهرزاد، لابد أن يعرض لقصص شهرزاد، فإن الأدب ما هو إلا بناء على بناء، وتطور في الخلق من بعد تطور.

فإلى أحلام شهرزاد أخيراً!

كان أسلوب الأستاذ الجليل الدكتور «طه» في هذا الكتاب هو الأسلوب الذي عرفناه له، ولا أستطيع أن أصفه بأكثر من أن أصف الأثر النفسي الذي يحدثه في.

سألني مرة صديق فاضل عن رأيي فيه، فقلت بعد تفكير: إني كنت منذ دهر أمشي في أوقات الصيف حول (سان استفانو) بالإسكندرية، وكنت أرى فيه عواماً ما رأيت مثله في (سلاسة) طريقته. كان يضرب بيديه ضرباً هيناً ويضرب بساقيه ضرباً هيناً، فكأنما هو حوت من تلك الحيتان اللينة التي تنساب في الماء في رشاقة وتتلاعب في نعومة تشبه نعومة الأنغام الموسيقية، فكان لا يخطر لي أن أسأل نفسي عن هدفه، ولا عن سرعته أو بطئه، إذ كان أسلوبه يستولي على كل مشاعري استيلاء. وأنا إذا قرأت ما يكتبه «طه» شعرت بمثل ذلك، فلا أسأل نفسي عن شيء، ولا أنظر إلى شيء سوى هذه السلاسة الموسيقية التي تغلب على كل ما دونها. ولم يتغير رأيي في ذلك الأسلوب عندما قرأت أحلام شهرزاد، فإنه استولى على مشاعري كما كان يفعل دائماً، واكتفيت منه بما نلت من متعة فائقة. ولم أجد دافعاً يدعوني إلى أن أتكلف من المشقة مثل ما تكلفت في فهم صاحبتها شهرزاد الحكيم، لأن جمال الصياغة وموسيقاها كفيلان بتأدية مثل هذا التكليف. ولكني مع ذلك راجعت نفسي وكاوحتها، فإنه ليس من الإنصاف أن أجهد نفسي لأفهم معنى شهرزاد «الحكيم»، وأتلمس مقصده في شيء من العسر والمشقة، في حين لا أسائل نفسي عن مقصد «طه» من كتابه. وأقبلت على الأحلام أقرؤها مرة ثانية ومرة ثالثة، وكنت في كل مرة أخرج من القراءة قانعاً بما نلت من متعة، ولم أحمل نفسي مشقة ولا عسراً في فهم معنى تلك الرموز التي جعلها الدكتور مطية لمعانيه، كما فعل الحكيم. فيا لهؤلاء الأدباء وما لرموزهم!

إنما نريد أن نفهم وأن نتمتع بما يكتبون، فما لهم يكلفوننا المشقة في فهم مقاصدهم!

وما الذي يحمل أديبينا الكبيرين على هذه الطريقة التي تذكرنا بطريقة فلاسفة القدماء في إلغاز من لا يفهم، إذا لم يكن قد بلغ من الفلسفة ما يعينه على تحقيق إلغازهم بفهمه الخاص وعقله الواسع وإدراكه لطرائقهم في الرمز والإشارة!

لا شك أن هناك معاني واضحة نفهمها من الأحلام ونعجب بها ونقرها. هناك معان لو وضعت بعضها إلى جنب بعض لكانت سلسلة بديعة من الحكم الاجتماعية والسياسية. قالت فاتنة لأبيها ملك الجان: «وإن هذه الحرب كما كنت تقول لا تمس رعيتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد، وإنما هي شهوة جامحة دفعتهم إلى الشر والكيد» ثم قالت: «وما ينبغي أن نقاتل نحن ويشقى الأبرياء وما ينبغي أن يمس رعيتنا أو رعية أعدائنا سوء» ثم قالت لقائد الجيش تؤنبه على شدة حرصه على الحرب: «من شاء منكم أن يقاتل فليقاتل بنفسه لا بالأبرياء من جنده.»

ثم تحدثت إلى وزيرها عن الملوك الذين شنوا الحرب طمعاً وطغياناً فقالت : « فإذا مثلوا بين يديك أو بين يدي وكلائك فخيرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب ... فأيهم اختار الحياة وأشهد على نفسه أنه طاغية مهدر لحق شعبه ، فليخلع نفسه من الملك وليلق إلينا بيده ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء » .

لا شك أن هذه وأمثالها سلسلة من الحكم الصادقة يسوقها المؤلف في ثنايا كتابه واضحة ، ولا شك أن فيها مقنعاً لمن أراد منفرى أو قصداً ولم يكلف عنا دونها من الأسلوب والوشيق .

ولكن مع كل ذلك ما هي تلك الرموز الكثيرة ، وماذا يقصد المؤلف منها ؟ ماذا تمثل شهرزاد هنا وماذا يمثل شهريار ومن الذي يختفي وراء رمز طهمان ووراء رمز قانه ابنته ؟

لقد أصبحت القصة في العالم الحديث أداة لكل دعوة يريدها وكل فلسفة يريد أن يبسطها ، والقصة العربية اليوم ترفع رأسها ناهضة ويتعلق بها هذا الجيل الناشىء من أدباء الشباب ، فهي جديرة بأن يتحدث عنها أهل الأدب بما يخطر لهم .

وسر القصة هو ذلك الخداع الذي يخدعنا به المؤلف حتى نعتقد أنه يصف لنا ما شهد وما عرف ، فلا يزال يسوقنا مع خياله حتى ينتهي بنا أخيراً إلى أن نرى ما يراه هو وأن نحس ما يحسه وأن نشهد ما زعم أنه شهده . كل ذلك يفعله المؤلف بغير أن يشعرنا أنه يلح بإرادته أو أنه ينصحنا أو أنه يعلمنا .

فالقصة نوع من الاستهواء ، ولابد أن تقدم لنا ما يؤدي إلى ذلك الاستهواء من إخماد لعقلنا الواعي واستيلاء على خيالنا . ولا يتم للقصصي ما يريد إلا إذا نجح في أن نعيش معه في عالمه الذي يريد أن ينقلنا إليه . ويجعلنا ندرك لغة ذلك العالم ومدلول ألوانه . لا بد له أن يصور لنا ذلك العالم تصويراً يخيله إلينا كالحقيقة ، ولابد أن يحرج وصفه عواطفنا العاطفة حتى تغلب العقل الواعي ، وأن يجعل أشخاصه تتحرك حركة لينة طبيعية ، وأن يجعلها تتحدث وتحس وتفكر كما نحس ونفكر حتى تألف إلينا ونحسب أنها بعض من نعرف من الأحياء ، والقصصي لا يستغني عن أن يصف لنا المنظر الذي حول هؤلاء الأشخاص ، حتى كأننا نراه ونرى من فيه وأن يجعل صور هؤلاء الأشخاص بحيث لا تغيب عنا صفات أجسامهم ولا مظاهرهم ولا خلجات نفوسهم ولا تفوتنا لفتة من لفتاتهم أو لمحة من لمحات التعبير على وجوههم .

كل هذه من ضرورات القصة إذا شئنا أن نسمي الأمور بأسمائها . فهل نجد ذلك كله في « أحلام شهرزاد » ؟ إننا نفقد كثيراً من مميزات القصة في القصر المسحور ولكنا شعرنا أثناء الأحلام قرأناها بالعقل الواعي ولم يخدعنا المؤلف بذلك الخداع الذي تميز عالم القصص .

ولكنا ... أساساً فنقول : إنه لا يعني الفكرة أن تمر على العقل الواعي بدلاً من أن تحملها إلى النفس في خداع الخيال . والأدباء قرأتهم التي لا يتفقون فيها جدلاً .

ولا ينبغي لنا أن ننتهي من هذه الكلمات بغير أن نعرج على الكلمة القصيرة التي كتبها صديقنا الأستاذ كامل الشناوي في قصة شهرزاد ، فقد كانت تلك الكلمة مثار هذا الحديث الطويل كله . قال الأستاذ إنه رأى شبهاً من التشابه بين شهرزاد « طه » وبين شهرزاد « الحكيم » ، ورأى في الأحلام ألفاظاً توافق بعض ما جاء على لسان شهرزاد الصاحية ، وقال إن هذا عنده مثابة وقوع الحافر على الحافر ، وكأنما هو يريد أن يقول إن طه قد نقل من توفيق . ولسنا نظن إلا أن صديقنا الأديب قد أراد أن يثير مناقشة تبعث شيئاً من الحرارة في هذا الجو الفكري الراكد .

كأنما هو يريد أن يبعث تلك الناقشة القديمة من مرقدها ، تلك التي كانت تثور بين حين وحين ، فينقسم لها

الأدباء إلى طوائف وشيع ، كل منها تدافع وتهاجم ، وكل منها تحت وتنقل وترفع وتخفض . أقصد تلك المناقشة التي كانوا يثيرونها حول ما يسمونه « السرقة الأدبية » . كان الأدباء يبحثون عن لفظ يشبه لفظاً ، وعن معنى يشبه معنى مما في أصواتهم متسادين أنها السرقة ، وكانوا عند ذلك يتبصرون المعنى واللفظ حسبما تشاء لهم شخصياتهم الأدبية ، ويعتمدون في ذلك لغة وسليقة . ولا أشك أنهم أتحفوا اللغة العربية بنوع فذ من أنواع الأدب يندر له شبيه في الآداب الأخرى ، ونحن اليوم إذا ألقينا نظرة إلى أدباء العرب في العصور المختلفة لم يخل قلبنا من أثر هذه الصيحات ، حتى ليكاد نتصور أن أدباء العروبة كانوا جميعاً يقترفون هذه الجريمة الشنعاء .

ولقد فكرنا في تفسير هذه (الظاهرة) ، ف[illegible] الأسباب واحداً ، وهو أن أدباءنا كانوا في أكثر من [illegible] كتبهم الحرية ، فلم تكن لهم حياة ولا [illegible] ولا الفكر ولا الخيال ، فكانوا يتحولون [illegible] فيستمدون ما عند أحدهم من لفظ أو معنى [illegible] التي يطمع الناس فيها ويسرقونها ، وهم بذلك إنما يطلقون لتفكيرهم ، ويعوضون أنفسهم عما فاتهم من مادة هذه الحياة . فهل يريد صديقنا الأديب أن يحاول اليوم مثل هذه المحاولة ؟

إننا نخالف الأستاذ الشناوي في أساس الرأي الذي ذهب إليه . فلسنا نرى أن في الأدب شيئاً اسمه سرقة ، بل إن الأدب في أصح معانيه ما هو إلا نتاج قد امتزجت به عناصر مختلفة ليس فيها من جديد يبدعه الأديب سوى فنه وأسلوبه ونظرته وفلسفته .

هل الأديب إلا كالموسيقي أو الفنان الذي لا يمكن أن يخلق في أدبه إلا من الثروة التي تجتمع عنده من أساتذة الأدب والفن في العصور الماضية وفي عصره الذي يعيش فيه ؟ لا نظن أن هنالك أديباً جديراً بكلمة الأديب لا تنعكس في أدبه آثار الإنسانية وتهيئ أو تثير نفسه على أصداء معانيها .

ولكن لم نعد كل هذا البعد في المناقشة ؟ ولم نوغل كل هذا الإيغال في تصور المبادئ العامة ؟

هذا هو طه في (أحلام شهرزاد) فماذا فعل ؟

إن موضوعه يختلف كل الاختلاف عن موضوع (شهرزاد) وإن بين أسلوبه وأسلوب توفيق من الفرق مثل ما بين شخصيتي طه وتوفيق .

فهل اتفاق الأديبين الكبيرين في اتخاذ اسم شهرزاد يعتبر من أحدهما أخذاً من صاحبه ؟

يجب أن نذكر أنها شهرزاد السعيدة التي كتب عنها القدماء والمحدثون ، وكتب عنها أهل الشرق وأهل الغرب ، وكانت مرة [illegible] مرة فيلسوفة ومرة عاطفية ومرة [illegible] فهل يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه أو أن يجعلها في سجن [illegible] تأليفه ؟ إني أكبر الظن أنها لم تعش بعد [illegible] في عقول أدباء الأجيال المقبلة [illegible] لا يحق لأحد أن ينسبها إلى [illegible]

وقد أورد طه في (أحلام شهرزاد) بعض ألفاظ نعرفها مما نطقت بها شهرزاد الحكيم ، ولنا في ذلك رأي نظن أن الإنصاف يقر أحقيته . لقد كان طه مجاملاً لصديقه عندما أدخل هذه العبارات في قصته ، فإنه بذلك يعترف بالعمل السابق الذي أبدعه صاحبه وكأنما به يتودد إليه بأن يبحث في شهرزاده ملامح من الشخصية التي رسمها ذلك الصديق ، وما أجدر الأديب أن يشعر بالارتياح عندما يرى زميلاً يردد في كتاب له بعض ألفاظ من مؤلفه ، ففي هذا مجاملة وفيه اعتراف وفيه مشاركة في الحديث بين الأدباء . هذه معان يجدر بنا في هذا العصر أن نجعلها مقاييس لأحكامنا بدلاً من هذه المقاييس التي كانت منذ حين مثاراً للمشاحنة بين الشعراء والكتاب .

([illegible]) محمد فريد أبو حديد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ — بعابدين بمصر